محمد فاضلی

نظریة عبدالقاهر فی الإستعارة

الانسان کما یتأمل ویتفکر ، یحس ویشعر، لیری ماحوله : سلمه وحربه ، رخاءه وبؤسه ، سعده وشقاءه ، حسنه وقبحه فیتأثر، واحیاناً یخرج من عالم الحس ویحلّق فی سماء الخیال حیث لایلقی أمامه حجابا ولاجدارا . فهناك یجد الانسان نفسه فی عالم غیر متناهٍ ، عالم لاتحیط به الآفاق ولاتحده الکلمات ، ذلك عالم الخیال وعالم المعنی .

الانسان علی عکس بخله بالمال وسعیه فی اخفاءه یحب ان یبذل ما یعرفه ویشعره ، ویحرص علی ان یبیّن خواطره وآراءه . لعل ذلك انه یعتقد فناءه ولایرید ان یستسلم له کأن لم یکن شیئا مذکورا ، فیحب ان یترك من بعده اثرا یخلّد ذکراه فی الباقین، فاذن یخدم الانسان من سبیل الفن نفسه وشخصه . ومع قطع النظر عن هذه الناحیة، الانسان بحاجة الی التعبیر عن مقاصده فی جمیع مجالات الحیاة . الیس التعبیر من المواهب التی یختص بها الانسان ؟ والیس یمن الله علیه بانه علمه البیان ؟.

فالانسان فی مجال التعبیر کثیرا مایری نفسه امام مشکلة عظیمة وهی فقدان وسائل التعبیر وقلة ادواته ، ذلك لان ما یعرض للانسان من المفاهیم غیر متناه والکلمات او اللفات التی اصطلح الناس علیها متناهیة، فمن الطبعی انه لایمکن الوضع والاصطلاح لما یتلوّن بلون الشخص ویتعدد بتعدده ، فالاحساس والشعور فی کل شخص غیرهما فی شخص آخر وکذلك التفکر والتخیل فکیف یتصور الوضع والاصطلاح للتعبیر عن نتائجها .

فالانسان منذ ان عرف هذه المشکلة اراد ان یتغلب علیها او یخلّص نفسه منها مهما امکن ، فاستمد من التمثیل وخلق التراکیب والتعابیر المتنوعة والمتعددة ، واخذ طریقا

من المتناهى الى غير المتناهى ، ففى هذا المجال يتفاوت درجات التعبير من حد الاعجاز الى مايلتحق بصوت الحيوانات ، ومن حد «ان من البيان لسحراً» الى مايعد جعجعة . ومدار هذا الاختلاف ان لم يكن مجازا فلاشك ان المجاز يعد من صميمه ، فالمجاز والاستعارة هما اول سفينة للوصول الى عالم غير متناه من التعبير ، فهما بكسبان التعبير قوة ومتانة ويجعلان المراد والمعنى بمعرض بحيث تراه العين وتسمعه الأذن وتلمسه اليد ، فهما ابلغ طريقة لبيان المقصود وافضل وسيلة يستطيع الاديب بمعونتها ان يلقى مايحسه و بشعره الى غيره ، واجاد ابن رشيق حيث يعد المجاز «دليل الفصاحة وراس البلاغة»[1] .

لقد تنبه العلماء والادباء الى مدى اهمية المجاز والاستعارة ودورهما فى التعبير وإلباس المعنى والاحساس الوضوح والنصاعة . فتعرضوا لهما ، اما بالتعريف والتحديد او بدراسة امثلتهما ، فمنهم من اكتفى بالاختصار ومنهم من اتى بالشرح والتفصيل ، فهذا العمل على جلالته ربما لايخلو من خلل فى التعريف والاختلاط فى الأمثلة ، و هما لاينقصان من شأنه شيئا لأنهما اقلّ من قليل اولأن الكمال لله وحده . فعمل هؤلاء العلماء يستحق الثناء والشكر ويجدر بالملاحظة والذكر .

لعل اكبر الفضل فى هذا المجال يرجع الى الشيخ عبدالقاهر الجرجانى الذى يعد بحق الامام فى مسائل علوم البلاغة، فله فى الاستعارة نظرية خاصة جديرة بالدراسة ، فما وجدت الى الآن من يدرس هذه النظرية غير صاحب التلخيص فيتعرض لها بالاشارة ولا يصرح باسم عبدالقاهر[2] . فاردت ان اشرح نظرية الامام على ماتيسر لى . فان اصبت فقد اوضحت نظرية الامام وان اخطات فارجو من الذين يقراون القول فيتبعون احسنه ان يرشدونى لأننى لااريد الا تحرى الحق والحقيقة. فقبل ان ادخل فى بيان نظرية الامام فى الاستعارة اتعرض لبيان آراء الأخرين فى هذا المجال تعرضا سريعا .

لعل اول من رمز اليها هو ارسطو، فهو يقسم الاسم الى اقسام منها ماينطبق على مانسميه بالاستعارة بمعنى نقل اسم شىء لشىء آخر . فمن امثلة هذا القسم عند ارسطو استعمال «قطع» بدل «قتل» والتعبير عن العشية بشيخوخة النهار، فيسمى المثال الاول

١ـ العمدة ، ٣٦٥/١ تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ، بيروت .

٢ـ تلخيص المفتاح، وعليه شرح التفتازانى المعروف بالمطول ، ٢٩٥، تهران .

نقل النوع الى النوع والثانى النقل بطريق المناسبة[٣] . فعلى هذا ان ارسطو قد غرس بذور الاستعارة المصرحة والمكنية . فتقسيم ارسطو على مايظهر يرجع الى اللفظ من حيث افادة المعنى .

ففى العصر الاسلامى يبدو ان الجاحظ اول من اشار اليهما ويقول فى قول الشاعر :

و طفقت سحابة" تغشاها تبكى على عراصها عيناها

جعل المطر بكاء على طريق الاستعارة وتسمية الشىء باسم غيره اذا قام مقامه[٤] .

ولكننى مترددفى ان يكون قول الجاحظ اول اشارة الى فن الاستعارة لانه كما يخيل الى يرى عليه مسحة من الكمال .

وبعد الجاحظ نرى الرمانى يتحدث عنها ويعرفها بـ «تعليق العبارة على غير ماوضعت له فى اصل اللغة على جهة النقل للابانة» ويقول فى الفرق بينها وبين التشبيه «ان ماكان من التشبيه باداة التشبيه فى الكلام فهو باق على اصله لم يغيّر عنه فى الاستعمال وليس كذلك الاستعارة»[٥] .

فمعنى هذا الكلام ان الرمانى يعتقد بان التشبيه البليغ يعد من الاستعارة وان المشبه به لم يستعمل عنده فى ماوضع له، ويؤيد هذا ان الرمانى يأتى فى امثلة الاستعارة من القرآن الكريم بقوله تعالى : «اتاها امرنا ليلاً اونهاراً فجعلناها حصيدا»[٦] فيقول : اصل الحصيد للنبات ، حقيقته مهلكة"، ولاشك ان جملة جعلناها حصيدا تشبيه بليغ لاشتماله على ذكر المشبه والمشبه به .

ويستنبط ايضا من الآيات التى يمثل بها للاستعارة ان لها مفهوماً عاماً يشمل المجاز[٧] فى الحذف والكناية[٨] كما يشمل التشبيه البليغ .

٣ـ كتاب الشعر ، ١١٦ـ١١٨ تحقيق الدكتور شكرى محمد عياد ، دار الكاتب العربى، قاهرة .

٤ـ البيان والتبيين ، ١/١٣٥ تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مصر .

٥ـ النكت فى اعجاز القرآن، ٨٥ ، تحقيق محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف .

٦ـ يونس ، ٢٤ .

٧ـ اتى بهذه الآية : حتى تضع الحرب اوزارها . (محمد) ٤.) اى حتى يضع اهل الحرب .

٨ـ جاء بهذه الاية : ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط (الاسراء ، ٢٩) .

واعترض صاحب«الطراز»علی تعریف‌الرمانی بوجوه : الاول ، ان‌تعریفه للاستعارة یشمل کل‌اقسام المجاز. الثانی یلزم علیه ان‌یکون الاعلام المنقولة مجازا ، الثالث یلزم منه ان‌لو وضعنا السماء علی‌الارض ان‌یکون مجازا[٩] .

ولایخفی ضعف هذه‌الوجوه، لما اشرنا الیه من ان‌الاستعارة عندالرمانی لها مفهوم عام حتی یشمل‌المجاز فی‌الحذف ولامناقشة فی‌الاصطلاح ، علی ان‌شمول‌التعریف لکل اقسام‌المجاز ممنوع لان‌المجاز العقلی لیس من‌قبیل نقل‌العبارة الی غیرما وضعت‌لـه . فصاحب الطراز قد اسقط قید «للابانة» ثم‌اعترض علی حدالرمانی بانه یشمـل‌الاعلام المنقولة معانها تخرج من‌التعریف بهذاالقید ، لان‌النقل فی‌الاعلام لیس للابانة وتفخیم المنقول الیه .

ویأتی من‌بعدالرمانی عبدالله‌بن‌المعتز، خلیفة یوم ولیلة، فیتعرض فی‌کتابه«البدیع» للاستعارة والتشبیه والتعریض والکنایة، ولکنه لایفسر هذه‌الفنون بالتحدید ولایشیـر الی‌الفرق بینها ویکتفی فی‌هذه‌المواضع بالامثلة‌العدیدة غیرانه یبدومن مقدمة کتابـه ان‌الاستعارة عنده عبارة عن«استعارة الکلمة لشیء لم‌یعرف بها، من‌شیء‌قدعرف‌بها»[١٠] .

فمن‌الامثلة التی یأتی‌بها ابن‌المعتز للاستعارة قول عمروبن‌کلثوم :

الا ابلغ النعمان عنّی رسالة **فمجدك حولی و لؤمك قارح**[١١]

والحولی من‌الابل ما اتی‌علیه حول والقارح ماأتی علیه خمس‌سنین .

وقول ابی‌بکرالصدیق فی ذکرالملوك ... فاذا وجبت نفسه ونضب عمره **وضحا ظلـه** حاسبه‌الله عزوجل فاشد حسابه واقل غفره[١٢] .

فالظاهر علی هذین‌المثالین ان‌الاول تشبیه بلیغ والثانی کنایة، لان «ضحا ظلّه» کنایة عن انتهاء العمر لااستعارةله، لجواز ارادةالمعنی الحقیقی والمجازی.فهذه الامثلة اما تدل علی ان‌الاستعارة عندابن‌المعتز تشمل فی بعض‌الموارد‌التشبیه والکنایة ایضا ،

٩ـ الطراز، یحیی‌بن حمزةالعلوی ، ١٩٨ـ١٩٩، مصر .

١٠ـ البدیع، ١٧ تحقیق محمد عبدالمنعم خفاجی، مصر .

١١ـ المصدرالسابق، ٢٠ .

١٢ـ المصدرالسابق ، ٣١

اوتدل على ان ابن المعتز خلط امثلة الاستعارة بغيرها . ومما هو جدير بالملاحظة هاهنا ان ابن المعتز اتى بامثلة مثل قول الراعى :

فى مهمهٍ **قلقت** به هاماتها **قلق** الفؤوس اذا اردن نصولا

وقول ابن مقبل :

تقلقل من ضغم اللجام لهاته **تقلقل** عود المرخ فى الجعبة الصفر[١٣].

فى مبحث «احسن التشبيه» فهذا دليل ـ على ابن المعتز لايرى ان التشبيه البليغ يعد من الاستعارة . ويمكن ان يعتذر عنه بان الاستعارة تبنى على التشبيه .

فلما جاء ابو هلال زاد على ابن المعتز بانه تعرض للاستعارة والتشبيه والكناية والتعريض بالتعريف والتحديد وذكر الامثلة و لم يكتف بالامثلة فقط مثل ابن المعتز، فهو يعرف الاستعارة هكذا : نقل العبارة عن موضع استعمالها فى اصل اللغة الى غيره لغرض[١٤] . ثم اتى بامثلة كثيرة من القرآن الكريم والأحاديث والأشعار . فمن هذه الامثلة و تفسير الاستعارة فيها : ذرنى ومن خلقت وحيداً[١٥] ، وحقيقته ذرباسى وعذابى[١٦] .

وقول الشاعر :

اذا سقط السماء بأرض قومٍ رعيناه وان كانوا غضابا[١٧]

فاراد الشاعر من السماء المطر .

ولايخفى ان الظاهر من هذه الامثلة شمول مفهوم الاستعارة عند ابى هلال للمجاز فى الحذف والمجاز المرسل ايضا ، ولابأس اذا ينحصر الامر فى هذا لانه مناقشة فى الاصطلاح، لكن بقى ان اباهلال خلط امثلة الاستعارة بالتشبيه والكناية فاتى بقول الشاعر :

و اسبلت لؤلؤا من نرجسٍ فسقت وردا وعضّت على العناب بالبرد[١٨]

١٣ـ المصدر السابق ، ١٢٢ـ١٢٣ .

١٤ـ الصناعتين ٢٦٨ ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية :

١٥ـ المدثر ، ١١ .

١٦ـ الصناعتين ، ٢٧٢ .

١٧ ـ المصدر السابق ، ٢٧٦ .

١٨ـ المصدر السابق ، ٢٥١ .

فی مبحث التشبیه مع ان کلاً من اللؤلؤ والنرجس والورد والعناب و البرد استعارة مصرحة قدطوی فیها ذکر المشبه علی وجه لایحتاج الیه من حیث الاعراب .

وهکذا ایضا یخلط امثلة من التشبیه البلیغ بالاستعارة او یتردد فیها فحینا یعدها من الاستعارة مثل، قوله تعالی : «هنّ لباس" لکم وانتم لباس لهن[۱۹] وحینا یعدها من التشبیه مثل، قوله تعالی : «اعلموا انما الحیاة الدنیا لعب ولهو»[۲۰] ، وقوله ایضا : «وجنةٍ عرضها السموات والأرض»[۲۲] .

ثم ان اباهلال ذکر قوله تعالی : «ولاتجعل یدك مغلولةً الی عنقك»[۲۳] فی الاستعارة والظاهر فی هذه الآیة انها کنایة لااستعارة . فظهر مما سبق ان الاستعارة قبل ان تحدّد دقیقا کان لها مفهوم واسع یتردد بینها وبین التشبیه والکنایة

فمن اللذین درسوا الاستعارة فی مفهوم واسع ابومنصور الثعالبی فی کتابه «الاعجاز والایجاز» فهو وان لم یأت بتعریف الاستعارة ولکن امثلته تکفینا من التحدید ، فعدّ من الاستعارة هذه الامثلة : المؤمن مرآة اخیه ، الدنیا سجن المؤمن ، اکثروا ذکر هادم اللذات ، فاذن نستنتج ان الاستعارة عنده تشمل التشبیه البلیغ والکنایة ایضا .

فاذا نترك هؤلاء العلماء نری ان القیروانی صاحب کتاب العمدة لایأتی بتعریف من عنده للاستعارة ، ولکن ینقل قول الجرجانی والرمانی فی تحدیدها بدون مناقشة ونقد، فیظهر من هذا ان الاستعارة عند ابن رشیق مایصدق علیه تعریفهما وهو استعمال العبارة فی غیر ما وضعت له اونقلها الیه. ویؤید هذا قوله فی بیان سر الاستعارة : «والاستعارة انما هی من اتساعهم فی الکلام اقتدارا ودالة ، لیس ضرورة، لان الفاظ العرب اکثر من معانیهم، ولیس ذلك فی لغة احد من الامم غیرهم، فانما استعاروا مجازا واتساعا . الاتری ان للشیء عندهم اسماءً کثیرةً وهم یستعیرون له مع ذلك[۲٤] .

۱۹ـ البقره، ۱۸۳ . الصناعتین ، ۲۷۰

۲۰ـ الحدید ، ۱۹ .

۲۱ـ آل عمران ، ۱۲۷ . الصناعتین ، ۲٤۱ .

۲۲ـ المصدر السابق ، ۲۷۵ .

۲۳ـ الاعجاز والایجاز ، ۱۹ـ۲۰ مکتبة دار البیان .

۲٤ـ العمدة، ۱/۲۷٤ ،

والتشبيه عنده عبارة عن «صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة او جهات كثيرة»[٢٥] فهذا الكلام لايدل على اى نقل فى العبارة او استعمال فى غير ما وضع له . لايقال كيف يمكن خلو التشبيه من النقل او الاستعمال فى غير ما وضع له مع ان القيروانى قد ادخله تحت المجاز[٢٦] . لانا نقول ذلك باعتبار ان المشابهة بين المتشاركين فى اكثر الموارد من باب التوسع والمسامحة ، والا فالمتشاركان لم يستعملا حقيقة فى غير ماوضع لهما ، على ان القيروانى نفسه يقول : «لأن المتشابهين فى اكثر الاشياء انما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لاعلى الحقيقة»[٢٧] فعلى هذا الفرق بين الاستعارة والتشبيه واضح وان كانا يشتركان فى انهما جميعا يخرجان الأغمض الى الاوضح ويقربان البعيد الى الذهن والفهم .

اما القيروانى ، فيقول فى الفرق بينهما : «والتمثيل والاستعارة من التشبيه الا انهما بغير اداته وعلى غير اسلوبه[٢٨] ، فالظاهر ان المراد من «غير اسلوبه» مالم يكن المتشاركان مذكورين على سبيل التشبيه .

فعلى كل حال ، يعتقد القيروانى بان الاستعارة تخالف التشبيه وتجرى على غير اسلوبه **فيجب** ان لاتتفق امثلتهما ، ولكنه يأتى بامثلة الاستعارة فى باب التشبيه مثل :

فاسبلت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

وكقول ابى نواس :

ترنو الى بعين الظبى مجهشةً وتمسح الطل فوق الورد بالعنم[٢٩]

ولاشك ان اللؤلؤ والنرجس والورد والعناب والبرد فى البيت الاول وعين الظبى والطل والورد والعنم فى البيت الثانى كل منها استعارة .

وقد يعكس فيأتى بامثلة التشبيه فى باب الاستعارة مثل :

٢٥ـ المصدر السابق ، ٢٨٦ .

٢٦ ـ راجع المصدر السابق .

٢٧ـ المصدر السابق ، ٢٦٨ .

٢٨ـ المصدر السابق ، ٢٨٠ .

٢٩ـ المصدر السابق ، ٢٩٤ـ٢٩٥ وتفحصت فى ديوان ابى نواس عن البيت فلم اجده .

فلما رایت اللیّل والشمس حیّةً حیاة الذی یقضی حشاشة نازع[۳۰]

فیقول القیروانی فی تفسیر هذا البیت : والشمس حیة من بدیع الکلام والاستعارة .

وکقول ابی تمام :

والله مفتاح باب المعقل الأشب* .

ولایخفی ان کلاً من «الشمس حیة» و«الله مفتاح باب المعقل» تشبیه بلیغ لم یقع فیه النقل والاستعمال فی غیرما وضع له . ویمکن ان یقال اذا کان المثالان من التشبیه البلیغ لابأس ان نعدهما من الاستعارة کما فعل بعض من البلاغیین . هذا الکلام مقبول ولکن لاینفع القیروانی ولایغنی من الجوع شیئا لان الاستعارة عند القیروانی کما اشرنا الیها ماانشتمل علی النقل اوالاستعمال فی غیرما وضع له ولیس کذلک التشبیه مطلقا ، علی ان القیروانی قداتی بالتشبیه البلیغ وامثلته فی باب التشبیه مثل قول المرقّش :

النشر مسك و الوجوه دنا نیر واطراف الاکفّ عنم

وکقول ابن المعتز :

بدرٌ ولیلٌ و غصنٌ وجه و شعر و قد[۳۱]

فهذا دلیل علی انه یری ان کلا من التشبیه البلیغ والاستعارة فن مستقل لابد ان یدرس فی بابه .

لقد کان هذا المقام حقیقا بأن نأتی فیه بنظریة الشیخ عبدالقاهر فی الاستعارة ولکن نترکها الآن ونشیر الی کلام عالمین جلیلین اعنی السکاکی وابن الاثیر ونقف عند کل منهما قصیرا او طویلا ، ثم نرجع الی الامام عبدالقاهر ونتبیّن ماذهب الیه حتی تکون دراستنا لنظریته قائمةً علی بیان اقوالٍ من متقدمیه ومتاخریه .

یقول السکاکی فی تعریف الاستعارة : «هی ان تذکر احد طرفی التشبیه وترید به الطرف الآخر»[۳۲] . والاستعارة عنده تنقسم الی مصرح بها ومکنی عنها ، فیذکر فی الاول المشبه

۳۰ـ المصدر السابق ، ۲۷۵ .

* والمصراع الاول : من بعد ماانشبوها ، واثقین بها . والبیت من قصیدة معروفه لابی تمام فی فتح عمورية .

۳۱ـ المصدر السابق ، ۲۹۲ ماوجدت هذا البیت فی دیوان ابن المعتز المطبوع فی بیروت .

۳۲ـ مفتاح العلوم ۱۷٤ ، مطبعة مصطفی البابی الحلبی ، مصر .

به وفي الثاني المشبه فقط .ويعرف الاستعارة بالكناية هكذا : «ان تذكر المشبه وتريد المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة»[٣٣] .

ويفهم من تعريف السكاكي للاستعارة ان «زيد" اسد"» لايعد منها، لان طرفي التشبيه كليهما مذكوران ولاتريد بواحد منهما الطرف الاخر . على ان السكاكي نفسه يصرح بان «زيد اسد» يعد تشبيها فيقول : واعلم ان ليس من الواجب في التشبيه ذكر كلمة التشبيه بل اذا قلت زيد اسد واكتفيت بذكر الطرفين عد تشبيها»[٣٤] فالاستعارة والتشبيه البليغ شيئان متمايزان عند السكاكي ولم تختلط امثلتهما ايضا في كتابه .

واما ابن الاثير فلقد تعرض في كتابه المثل السائر ، المجاز والاستعارة واتى فيهما بآراء وتأويلات قد ادعى الابتكار فيها وانه لم يسمعها من غيره . ولكن على رغم الافتخار بنظرياته في هذا المجال يرى في تحديده للمجاز والاستعارة وتفسيره لهما اضطرابات" تستحقق التامل والوقوف عندها .

ينقسم المجاز عند ابن الاثير الى توسع في الكلام وتشبيه واستعارة . ويعنى من التوسع في الكلام المجاز المرسل والعقلي والاستعارة بالكناية . ويعرف المجاز بـ «ما اريد به غير المعنى الموضوع له في اصل اللغة» ثم يضيف في تفسير المجاز قوله : «و حقيقته هي الانتقال من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل الى محل ، كقولنا : زيد" اسد" . فان زيدا انسان ، والأسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية»[٣٥] ولايخفى ان المجاز على هذا التفسير لايشمل التشبيه مثل زيد اسد ، لانه من الواضح ان كلا من زيد واسد اريد به معناه الموضوع له ولم ينقل الى غيره ، حتى ان ابن الاثير جعله من التشبيه المضمر الاداة وقال : اذا لم نجعل قولنا «زيد اسد» تشبيها مضمر الأداة استحال المعنى لان زيدا ليس اسدا[٣٦] . فكلامه صريح في ان كلا من زيد واسد استعمل في معناه الموضوع له .

ولو سلم هاهنا تحقق النقل وارادة غير المعنى الموضوع له فلابد ان يكون

٣٣ـ المصدر السابق ، ١٧٩ .

٣٤ـ المصدر السابق ، ١٦٧ .

٣٥ـ المثل السائر ، ٥٨ ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة مصطفى البابي، مصر .

٣٦ـ المصدر السابق، ٢٥٨ .

المجاز «اسدا» لا زیدا ، لکن تفسیر ابن‌الاثیر لهذا کما سبق آنفا یدل علی‌عکس ذلك .

ولایلبث ابن‌الاثیر عند هذاالحد للمجاز بل یرجع الیه فیعرفه مرة اخری هکذا : «والمجاز هو نقل‌المعنی عن‌اللفظ الموضوع له الی لفظ آخرغیره»[۳۷] فهذا التعریف للمجاز یتفاوت من‌الاول ، لانه صریح فی‌ان‌الانتقال والتجاوز انما حصلا فی‌المعنی دون اللفظ بخلاف‌الاول . فهذاالعالم الجلیل عند تفسیره وتمثیله لهذا الحد الاخیر کانه نسی ان‌نفسه جعل المجاز نقل‌المعنی عن‌اللفظ، فیرجع الی تعریفه الأول‌ویقول : «و مثال ذلك انا اذا قلنا «شمس» اردنا به‌هذا الکوکب‌العظیم الکثیر الضوء ، وهذاالاسم‌له حقیقة لانه وضع بازائه ، ... فاذا نقلنا الشمس الی‌الوجه المایح استعارة کان‌ذلك‌مجازا لاحقیقة»[۳۸] فهذا صریح فی‌ان‌النقل انما وقع فی‌اللفظ وان‌المجاز هواستعمال لفظ الشمس فی‌الوجه‌المایح وترك معناهاالاصلی .

فکلام ابن‌الاثیر فی‌تفسیر المجاز والاستعارة یتردد بین نقل‌المعنی من‌اللفظ الموضوع‌له ونقل‌اللفظ من‌المعنی الموضوع‌له. ویقول فی‌موضع آخر من‌کتابه فی بیان المجاز : «هواسم للموضع‌الذی ینتقل فیه من‌مکان الی‌مکان ، فجعل ذلك لنقل‌الالفاظ من‌الحقیقة‌الی‌غیرها». وحینما یرید ان‌یاتی للاستعارة بحدّ جامع ومانع‌هکذایقول: «حد الاستعارة نقل‌المعنی من‌لفظ الی‌لفظ لمشارکة بینهما معطی ذکرالمنقول‌الیه» فهوکما نری یصرح‌هاهنابان النقل انماتحقق فی‌المعنی، ولکنه‌لایلبث‌عندهذاالرأی‌یرجع‌بسرعة الی‌القول بنقل اللفظ فیقول : «وطریقه انك‌تریدتشبیه‌الشیء مظهرا او مضمرا، وتجیء الی المشبه فتعیره اسم‌المشبه به وتجریه علیه»[۳۹] ، وهکذا یتردد بین نقل‌المعنی ونقل اللفظ .

علی ان‌تفسیر الاستعارة «بنقل‌المعنی‌من‌لفظ...» لایستقیم، لان‌الظاهر من‌نقل‌المعنی الی لفظ‌آخر ، کمایفهم من‌قوله فی زید اسد : «وهذا نقل‌المعنی من‌لفظ الی‌لفظ بسبب مشارکة‌بینهما ، لأنا نقلنا حقیقة الاسد الی‌زید فصار مجازاً»[۴۰] هو اخذالمعنی وانتزاعه

۳۷- المصدرالسابق، ۵۸ .

۳۸- المصدرالسابق ، ۵۹

۳۹- المصدرالسابق ، ۲۶۵ .

۴۰- المصدرالسابق ، ۲۶۵ :

من اللفظ الاصلى واعطاؤه للفظ آخر ، فمقتضى ذلك ان يبقى اللفظ الاصلى مهملا بلامعنى وان لايطوى المنقول اليه دائما ، ضرورة وجود الدال حتى يفهم المدلول ، ولكن المنقول اليه فى الاستعارة مطوى الذكر دائما كما صرح به ابن الاثير نفسه .

لايقال : ان المراد من نقل المعنى ، اخذه ممايصدق عليه لفظ الاسد فحينئذ يكون المعنى واللفظ كلاهما منقولين فيصير لفظ الاسد مراد فاللفظ المنقول اليه ، فعلى هذا لاحاجة الى ذكر المنقول اليه. لانانقول هذا الكلام انما كان مقبولا لوقيل فى حد الاستعارة او المجاز : نقل المعنى الى لفظ ... ، ولم يصرح بالمنقول عنه ولكن ابن الاثير يصرح بان المعنى نقل من اللفظ ، كماسبق .

بقى ان يقال : ان المراد من نقل المعنى حمله واسناده ، كما سيأتى عند بيان نظرية الشيخ . هذا التأويل حقيق بالقبول ولكن لايوجد فى كلام ابن الاثير مايؤيده . فهو فى هذا المجال لايخلص نفسه من التردد بين نقل المعنى ونقل اللفظ فيرجح احدهما على الآخر .

وفى الختام اشير الى ان ابن الاثير مع جلالته واعتزازه بنفسه فى كلمات مثل : « فتأمل ما اشرت اليه وتدبره حتى تعلم انى ذكرت مالم يذكره احد غيرى»[٤١] قد اشتبه عليه صور من الاستعارة فخلطها بامثلة التشبيه المضمر الأداة ، فذكر قوله تعالى : «وآية" لهم الليل نسلخ منه النهار»[٤٢] و«اشتعل الرأس شيبا»[٤٣] فى امثلة محاسن التشبيهات التى تجرى على اسلوب التشبيه البليغ او بعبارة اخرى تعد منه . اللهم الا ان يقال انه اتى بهذه الآيات فى هذا المقام فقط بملاحظة انها تتضمن استعارات تبنى على تشبيه حسن .

فهذه آراء وعقايد حول الاستعارة من متقدمى عبدالقاهر ومتاخريه سبقت الاشارة اليها ، ولكل منها فضل فى تشييد بناء علم البلاغة . واما عبدالقاهر وان كانت تعبيراته عن المجاز والاستعارة فى «اسرار البلاغة» الذى الّف قبل «دلائل الاعجاز»، وفى «دلائل الاعجاز» ايضا فى بعض الاحيان تجرى مجرى المعروف عند الناس كقوله : «اعلم ان

٤١ـ المصدر السابق ، ٣٦٠ .

٤٢ـ يس ، ٣٧ .

٤٣ـ مريم ، ٣ . المثل السائر ، ٤٠٠

طریق المجاز والاتساع فی الذی ذکرناه قبل: انك ذکرت الکلمة وانت لا تریـد معناهـا، ولکن تریـد معنی ماهو ردف له اوشبیه. فتجوزت بذلك فی ذات الکلمة وفی اللفظ نفسه»[٤٤].

وقوله: «ان الاستعارة فی الجملة ان یکون اللفظ اصل فی الوضع اللغوی معروف، ثم یستعمله الشاعر اوغیر الشاعر فی غیر ذلك الاصل وینقله الیه نقلا غیر لازم»[٤٥]، وقوله ایضا: «ان المستعیر یعمد الی نقل اللفظ عن اصله فی اللغة الی غیره، ویجوز به مکانـه الأصلی الی مکان آخر»[٤٦] ولکن له نظریة خاصة یشیر الیها فی «اسرار البلاغة» ویبدیها فی اواخر «دلائل الاعجاز».

ولایخفی ان الشیخ من انصار المعنی وحماته نیرجع الفضل للکلام عنده الی المعنی لاالی اللفظ من حیث هو لفظ، فعلی هذا ینکر علی غیره جعل المجاز والاستعارة من صفات اللفظ و تفسیرهما بنقل العبارة عما وضع له الی غیرما وضع له. فیقول: «ومما الصفة فیه للمعنی ... وان لایکون من صفة اللفظ بالصحة والحقیقة، وصفنا اللفظ بانه مجاز، وذلك انا اذا حققنا لم نجد لفظ اسد قد استعمل علی القطع والبت فی غیرما وضع له»[٤٦] لاننا لانجری لفظ الاسد علی الرجل الا بعد ان ادعینا انه اسد وجعلناه ذا بسالة وافتراس مثله، فالاسد حینئذ لم یستعمل فی غیـرما وضع له. بالکل. فالتجوز لیس فی النقل بل فی ادعاء معنی الأسدیة للرجل. والشیخ یشدّد الانکار علی نظریة النقل ویعتقد انه مما یوهم الخطاء فلایصح الأخذ به لان النقل انما یتحقق «اذا انت اخرجت معناه الاصلی من ان یکون مقصودك و نفضت منه یدك، فاما ان تکون ناقلاله عن معناه مع ارادة معناه فمحال»[٤٧].

فهو یعترض علی نظریة النقل فی الاستعارة بوجوه: الاول انه اذا کان لفظ «اسد» قد نقل عما وضع له فی اللغة وازیل عنه وجعل یراد به الرجل الشجاع غفلا ساذجا فمن این یکون لقولنا رایت اسداً مزیة علی رایت شبیها بالاسد وقد اشتهر بینهم ان الاستعارة

٤٤ـ دلائل الاعجاز، ٢٢٧، تصحیح الاستاذ الامام، محمد عبده، الطبعة الثالثة، دار المنار بمصر.

٤٥ـ اسرار البلاغة، ٢٩، تحقیق، هـ ـ ریتر، استانبول.

٤٦ـ دلائل، ٢٨٠.

٤٧ـ المصدر السابق،

ابلغ من الحقيقة[٤٨] .

الثانى : انانقول فى رأيت اسداً ورايت بحراً ورايت بدراً ، ان المتكلم جعل الممدوح اسدا وبحرا وبدرا ، اى صيره بهذه الصور ، ولايمكن الجعل اوالتعبير الابادعاء الاتحاد بين الممدوح وهذه الاشياء اواعطاء صفاتها له . بخلاف ما اذا سمّى شخص ابنه اسدا فلايصح ان نقول جعل ابنه اسدا[٤٩] . فعلى هذا ليست الاستعارة مجرد نقل اسم الى اسم آخر.

الثالث : لوكانت الاستعارة عبارة عن مجرد نقل شيء الى شيء اخر واستعمال كلمة فى غير ما وضعت له لكان محالا ان يقال فى رايت اسداً: «ليس هو بانسان ولكنه اسد»[٥٠] و انت خبير بانه لامندوحة فى هذا الكلام فيدل على ادعاء الاتحاد بين الرجل الشجاع والاسد واثبات الأسدية له فى المثال المذكور . والادعاء هو مدار الاستعارة اذ به يحصل المبالغة أنى تجعل الاستعارة ابلغ من التصريح .

الرابع : انه لايمكن تصور النقل فى بعض الاستعارات ، كمانرى فى قول لبيد :

وغداة ريحٍ قد كشفت و قرةٍ اذاصبحت بيدالشمال زمامها

فيقول الشيخ : لاخلاف فى ان اليد استعارة ثم انك لاتستطيع ان تزعم ان لفظ اليد قد نقل عن شيء الى شيء . وذلك انه ليس المعنى على انه شبه شيئا باليد فيمكنك ان تزعم انه نقل لفظ اليد اليه ، وانما المعنى على انه اراد ان يثبت للشمال فى تصريفها الفداة على طبيعتها شبه الانسان قد اخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما اثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد[٥١] .

ولايخفى ان «بيدالشمال» من باب «اظفار المنية» الذى يتضمن استعارتين مصرحة ومكنية ويشتمل كل منهما على مشبه ومشبه به ، غير ان المشبه فى الأولى غير محقق ولايمكن ان يشار اليه بل هو شيء ينتزعه الخيال . واما الشيخ فلا يحلل هذه العبارة الى استعارتين حاويتين المشبه والمشبه به ، بل كل ماعنده فيها هو ان الاستعارة هاهنا عبارة عن اثبات اليد للشمال .

٤٨ـ راجع دلائل الاعجاز ، ٢٨١ـ٣٣٢ .

٤٩ـ راجع دلائل الاعجاز ، ٢٨١ .

٥٠ـ راجع دلائل الاعجاز ، ٣٣٣ .

٥١ـ راجع دلائل الاعجاز ، ٣٣٤ .

فجملةالكلام ، انالشيخ ينكر نظريةالنقل فىالاستعارة والمجاز ولايرتضيها ، و يعتقدان مجردالنقل لايفيد بلاغة ولايعطىالكلام براعة . فالمجاز والاستعارة عنده عبارة عنادعاء الاتحاد بينالشيئين ودخول احدهما فى جنسالآخر ، فهما حينئذ ليسا من صفاتاللفظ بل يرجعان الىالمعنى . فمثلا اذاقيل : امطرتالسماء نباتا ، ولقيت اسدا كانالمجاز والاستعارة عندالشيخ عبارة عنادعاءالاتحادبينالمطر والنبات وبينالرجل الشجاع والاسد اوادعاء دخولالمطر فىجنسالنبات والرجلالشجاع فىجنس الاسد على سبيلالمبالغة ، فالنبات والأسد كمايدلان على افراد جنسهما ، كذلك يدلان على افرادالمطر والرجل الشجاع . فاذا استعملالاسد والنبات فىالمطر والرجل الشجاع لميكن هذاالاستعمال فى غيرما وضعله بليكون من قبيل استعمال العام فى بعضافراده من حيث هو فردمنه . و لهذا صح التعجب فىقولالشاعر :

قامت تظللنى من الشمس نفس اعز علىّ من نفسى
قامت تظللنى و من عجبٍ شمس تظللنى من الشمس

نولم يدعاالشاعر المشبه معنىالشمسالحقيقى ولم يجعل الممدوح فردا من افراد الشمس لما صحله هذا التعجب وايضا لولميكن مدارالاستعارة على الادعاء وادخال المشبه فىجنسالمشبه به ، لما صحالنهى عنالتعجب فىقولالشاعر :

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زرّ ازراره على القمر

انالشاعر جعل ممدوحه قمراعلى سبيل الادعا ثم نهى عنالتعجب منبلى غلالته ، فلو لميكنالأمر هكذا لماقال لاتعجبوا ... ، لان من حق كلانسان انيتعجب منبلى ثوب يستر البحر مع انصاحبه لم يلبسه مدة طويلة ولميعرضله سبب فىالظاهر .

فصحةالتعجب والنهى عنه تشعربانالقمر والشمس لميستعملا فىغيرما وضعاله.

فالشيخ يكرر نظريته مرّة فمرةكانه يريد انيشاركهالناس فىقبولها ، فيقول ايضا : «فقد تبين منغيروجه انالاستعارة انما هى ادعاء معنى الاسم للشىء لانقلالاسم عنالشىء ، واذا ثبتانها ادعاء معنى الاسم للشىء علمت انالذى قالوه : « منانها تعليق للعبارة على غيرما وضعت له فىاللغة ونقل لها عما وضعت له ، كلام قد تسامحوا فيه ، لأنه اذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لميكن الاسم مزالا عما وضعله

بل مقـرّاً عليه»[٥٢].

ولقائل ان يقول اذا لم يكن الاسم في الاستعارة على مذهب الشيخ مزالا ومنقولا عما وضع ... فما هو وجه التسمية بالاستعارة ؟ فالجواب اننا لما اردنا المبالغة في الاستعارة وجعلنا المشبه عين المشبه به واثبتنا الاسدية مثلا للرجل الشجاع ، فقد استعرنا في الحقيقة معنى المشبه به للمشبه .

بقي ان يقال لو كان المجاز والاستعارة عبارة عن ادعاء معنى الاسم لشيء آخر واثبات معنى المشبه به للمشبه ، لدخل كل منهما في المجاز العقلي الذي سماه الشيخ بالمجاز في الحكم، فالاولى ان يذكر هناك ، فما هذا التبويب والتشتيت ؟

قلنا ان اردت دخول المجاز والاستعارة في المجاز العقلي بمعنى ان التصرف فيهما يرجع الى امر عقلي فمسلم ولكنه لايجدي نفعا لانه لايوجد باب تحت ذلك العنوان بهذا المعنى . وان اردت دخولهما تحت المجاز العقلي المرادف المجاز الحكمي فغير مسلم، لان الفرض مثلا في «عيشة راضية» هو اثبات ذلك الحكم المجازي الذي جرى بين المسند والمسند اليه في هذه الجملة . واما المجاز والاستعارة وان اشتملا على اثبات شيء لشيء آخر لكن هذا الاثبات او الحكم ـ اذا صح التعبير به ـ اصبح شيئا مفروغا عنه في الجملة ، فتلقى لغرض آخر غير ذلك الاثبات والادعاء . فمثلا ان الغرض في القاء جملة امطرت السماء نباتا ولقيت اسدا الاخبار بنزول المطر ولقاء الاسد . واما اثبات معنى النبات المطر والاسد للرجل الشجاع فلقد اصبح مفروغا عنه في هاتين الجملتين .

ولايسعني ان اختم مقالتي الا بأن اقول : ان ادلة الشيخ في رد نظرية النقل قابلة للمناقشة على مايلي :

اما الاول : فلانسلم اذا اريد بالأسد في «رايت اسداً» الرجل الشجاع ، لايبقى مزية لهذه الجملة على «رايت شبيهاً بالأسد» ، لان المتبادر من الجملة الاولى مع قطع النظر عن القرائن هو ان ماراه المتكلم اسد لاغير ، وانما تفيد الجملة ان المراد بالاسد هو الرجل الشجاع من جهة القرائن في المرحلة الثانية وليس كذلك رايت شبيهاً اسدا، فهذا الكلام لايدل في الظاهر والباطن الاعلى ان ماراه المتكلم غير الاسد . وبعبارة اخرى لما حذف في الجملة الاولى المشبه وبقي المشبه به صار التشبيه امراً مطويا ومكنونا في الضمير وصار المشبه به

٥٢ـ دلائل الاعجاز ، ٣٣٥ـ٣٣٦ .

نفسه کانه المراد فی لجمله .

واماالثانی والثالث : فمدارالحجة فیهما علی ان المراد فی الاستعارة علی غیر نظریة الشیخ هومجردالنقل من غیرالتفات الی التشبیه الذی یوجب الاشتراك فی الصفات ، و وهذا ممنوع لاننالانعرف احداً یفسرالاستعارة بمجرد نقل شیء الی شیء ولایعترف بان ماوراءالنقل امرآخر . الاتری ان الاستعارة مجاز بنی علی التشبیه، فکیف یمکن النقل بدون رعایةالمشابهة علی الاقل ؟ فالنقل عند غیرالشیخ تابع لدعوی الاشتراك فی الصفه علی الاقل فلولم یکن هکذا لم یبق فرق بین الاستعارة والاعلام المنقولة .

واماالرابع : فنقول لما رای الذهن تصریف الریاح وتقلیبها الامور اخذ فی تصویرها بصورة انسان یصرف الامور بیده ، فجعل لها یداً وهمیة وشبهها بالیدالمحققة للانسان ثم اجری علی تلك الصورة الوهمیة عنوان الید، فعلی هذا تحقق النقل فی «یدالشمال» ایضا.

ویمکن التوفیق بین نظریة الشیخ والجمهور بأن مرادهم من تفسیرالاستعارة بنقل شیء الی شیء لیس مجردالنقل فحسب، بل نقل شیء الی شیء اخر معتمدا علی اثبات معنی المشبه به للمشبه وادعاءالاتحاد بینهما . فالنقل عندهم متفرع علی الاثبات والادعاء .

وان مرادالشیخ من نفی النقل فی الاستعارة لیس مطلق النقل، بل نفی نقل شیء الی شیء آخر من غیرتمهید ولامناسبة، فاماالنقل علی سبیل الادعاء والاتحاد بین الشیئین فمسلم عنده . لان لفظ الاسد فی «رایت اسداً» وان استعمل عندالشیخ فیما وضع له اذا اریدبه الرجل الشجاع ، الا ان هذاالاستعمال وقع فیما وضع له علی سبیل الادعاء لا الأصالة والحقیقة .